﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم: 31 - 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لَمّا ذَكَر اللّهُ تعالى أنَّه أعلَمُ بمَن ضَلَّ، وبمَنِ اهتَدَى، وكان هذا رُبَّما أوهَمَ أنَّ مَن ضَلَّ على هذه الحالةِ ليس في قَبضَتِه؛ قال نافيًا لهذا الإبهامِ، مُبَيِّنًا أنَّ له الأسماءَ الحُسنى ومُقتَضياتِها في العالَمِ، فهو مالك الملك[1]، فبعد أن ذكرَ أنَّ لله أمورَ الدّارين بقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾؛ جاء البيان لأهمِّ ما يجري في الدارين من أحوالِ الناس، الَّذين هم أشرفُ ما على الأرض بمناسبة قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[2].

كلُّ ما في الكون ممَّن اهتدى، أو ضلَّ، في قبضته وتحتَ سلطانه

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾: فعل ماضٍ يدُلُّ على القُبْحِ، وسُمِّيَتِ النّارُ سوءَى؛ لِقُبْحِ مَنْظَرِها[3]، وساءَ الشَّيْءُ: قَبُحَ، والسّوءُ نَعْتٌ لكلِّ شيءٍ رَديءٍ، وهو اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدّاءِ[4]، وهوَ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدُّنيويَّة والأُخرويَّة، والسَّيِّئَةُ: الفِعْلَةُ القبيحةُ[5]، والمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ في الآية: الَّذين عصوه من خلقه[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 66.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 119.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(4) الخليل، العين: (سوء).
(5) الراغب، المفردات: (سوء).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 531.

2) ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾: أصلُ الإثم: البُطءُ والتَّأخُّرُ، والإثمُ: الذَّنب؛ لأنَّ هذا الإثمَ بطيءٌ عَنِ الخير مُتأخِّرٌ عنه[1]، والإثمُ: التقصيرُ، وسُمّيت الخمرُ إثْمًا؛ لأنَّها تقصرُ بشاربها لذهابها بعقله، والإثمُ لا يكون إلّا تعمُّدًا[2]، والإثمُ ما يحملُ على قلقِ النَّفس، وهو معصيةٌ وخطيئةٌ تستحقُّ على صاحبها الذَّمَّ والعقوبة عليه[3]، والمراد بكبائر الإثم: الآثامُ الكَبيرَةُ الَّتي شدَّدَ الدّينُ التَّحذيرَ منها، وذكر لها وعيدًا بالعذاب[4].

3) ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: أصلُ الفحشِ يدلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشناعةٍ فيه، لمجاوزته الحدَّ مع تكرُّهٍ له وذمٍّ شديدٍ، فالفُحشُ والفَحشاءُ والفاحِشَةُ: ما عظُمَ قُبحُهُ، وفَشا استقباحُه لدى النّاس، من الأفعال والأقوال والأحوال، و(الفاحشةُ) هنا بمعنى الفعلةِ الشَّنيعةِ الشَّديدةِ القُبحِ، من زنى أو نشوزٍ وسوءِ خُلقٍ[5]، "و﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: جَمْعُ فاحِشَةٍ، وهيَ: الفِعْلَةُ المَوْصوفَةُ بالشَّناعَةِ، والَّتي شَدَّدَ الدّينُ في النَّهْيِ عَنها، وتَوَعَّدَ عَلَيها بالعَذابِ، أو وضَعَ لَها عُقوباتٍ في الدُّنْيا، لِلَّذي يَظْهَرُ عَلَيهِ مِن فاعِليها، وهَذِهِ مِثْلُ قتل النَّفس، والزِّنى، والسَّرِقَةِ، والحِرابَةِ"[6].

4) ﴿ٱللَّمَمَ﴾: أصلُ (لمّ) يَدُلُّ على اجْتِماعٍ ومُقارَبَةٍ ومُضامَّةٍ، ولَمَمْتُ الشيء: جمعته، وأصلحته، وألْمَمْتُ بكذا، أي: نزلتُ به، وقاربته من غيرِ مواقعةٍ، واللَّمَمُ: مقاربةُ المعصية، فاللَّمَمُ لَيْسَ بمواقَعَةِ الذَّنْبِ، وإنَّما هوَ مُقارَبَتُهُ، ثُمَّ يَنْحَجِزُ عَنْهُ، ويُعبَّر به عن الصَّغيرة[7]، ومعنى اللَّمم هو الفِعْلُ الحَرامُ الَّذي هوَ دونَ الكَبائِرِ والفَواحِشِ في تَشْديدِ التَّحْريمِ، وهوَ ما يَنْدُرُ تَرْكُ النّاسِ لَهُ، فيُكْتَفَى مِنهُم بعَدَمِ الإكْثارِ مِن ارتِكابِهِ، وهو ما يسمّيه العلماء الصغائر في مقابلة تسمية النوع الآخر بالكبائر[8].

5) ﴿أَجِنَّةٌ﴾: الجذر منه (جنن)، وأصله يدلُّ على السَّتْرِ والتَّسَتُّرِ، والجنينُ: الوَلَدُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (أثم).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 233.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (إثم)، والكفوي، الكليات، ص: 40.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 121.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (فحش).
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 121.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لمّ)، والراغب، المفردات: (لم).
(8) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 25/ 110، 27/ 121.

في بَطْنِ أُمِّهِ[1]، والمعنى المحوري: سَتْرُ الشيء بكثيفٍ يعلوه، أو يكون الشيء في أثنائه[2]، و﴿أَجِنَّةٌ﴾: جمع جنين، وهوَ نَسْلُ الحَيَوانِ ما دامَ في الرَّحِمِ، وهوَ فعيلٌ بمَعْنَى مَفْعولٍ؛ لأنَّهُ مَسْتورٌ في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ[3].

6) ﴿تُزَكُّوٓاْ﴾: (زكي) أصل يدلُّ على نَماءٍ وزيادَةٍ، وأصلُ الزكاة يرجعُ إلى النَّماءِ والطَّهارةِ[4]، والبركةِ والمَدْح، والزَّكاةُ: الصلاحُ، والزَّكاةُ: صفوةُ الشَّيْءِ، وأرضٌ زَكيَّةٌ: طيِّبةٌ سَمينَةٌ[5]، والزَّكاةُ: النُّموُّ الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدُّنيويَّة والأخرويَّة[6]، ومعنى ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾ في الآية: فلا تشهدوا لأنفسكم بأنَّها زكيَّةٌ بريئةٌ من الذُّنوب والمعاصي، فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة عن المعاصي بالكليَّة، أو بزكاءِ العمل وزيادةِ الخير، أو لا تَثِقوا بأنَّكُم أزْكياءُ، فيَدْخُلَكُمُ العُجْبُ بأعْمالِكُم، ولا يُثْنِ بَعْضُكُم على بَعْضٍ بالصَّلاحِ والطّاعَةِ؛ لِئَلّا يُغَيِّرَهُ ذَلِكَ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إحاطةُ مُلكِ الله لِما احتوت عليه العوالمُ كلُّها

للّه وحْدَه مُلْكُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ من شيء؛ ليَجزيَ الَّذين عصوه من خلقه، فأساؤوا بمعصيتهم إيّاه، فيثيبهم بها النار، وليجزي الذين أطاعوه، فأحسنوا بطاعتهم إيّاه في الدُّنيا بالحسنى، وهي الجنَّة، فيثيبهم بها[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنّ).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جنن).
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 124، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جنن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (زكا).
(6) الراغب، المفردات، ص: 380.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 540، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 63، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125.
(8) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 539.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إمّا استئنافٌ مسوقٌ للإخبار عن كمال قدرته سبحانه[1]، أو حاليَّة، أي: هو أعلمُ بمن ضلَّ، وبمن اهتدى، والحالُ أنَّ له ما في السَّماوات والأرض، أو عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ما تقديره: (فلله من في السَّماوات ومن في الأرض)، أي: له ملكُ الذوات والمعاني[2]، ويمكن أنْ يكون المعطوف عليه قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، والمراد بالعطف الإشارةُ إلى الجَزاءِ، إذًا جاء العطفُ لإثباتِ وُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ[3]، وللإشارةِ إلى كمالِ غنى اللّٰه وقدرته؛ لأنَّ مَن عَلِمَ، ولم يقدرْ؛ لا يتحقَّق منه الجزاء[4].

حالٌ من عَلِمَ، وقَدِرَ، أنْ يتحقَّق منه الجزاء

معنى اللام ودلالتها في (لله):

لام (للّٰه) في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لامُ الملكيَّة، أو لامُ التبعيَّة، والمعنى: كلُّ شيء في السَّماوات والأرض هو للّٰه خَلقًا وملكًا وتصرُّفًا[5].

كـلُّ شيء لله وحـده خَـلـقًـا وملكًا وتصرُّفًا

الغرض من التصريح باسم الجلالة مقدَّمًا على المبتدأ:

التصريحُ بالاسم الجليل مقدَّمًا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، في مقامِ التعظيم دلالةٌ على المبالغة في بيانِ عظمة اللّٰه سبحانه وعظمة ملكه سبحانه، وأنَّ له وحده ما في السَّماوات من الذوات والمعاني[6]، لا لغيره أصلًا لا استقلالًا ولا

بـيـانٌ لشمول المـلـك وتـمـامِ الـعـظـمـة لله وحده دون سواه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 326.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 66.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 119.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 268.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 66.

اشتراكًا[1]، أي: تخصيصُ ملك ما في السَّماوات والأرض بالله تعالى وحصره به، كما دلَّ تقديمُ الاسم الجليل على العناية، والاهتمام به.

دلالة التَّعبير بالاسم الموصول ﴿مَا﴾:

عمومُ ملك الله لما في السَّماوات والأرض دلالة على عظمته

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾؛ للدَّلالة على العموم؛ إذ هي أدخل الموصولات في الإبهام وأعمُّها، أي: لله كلُّ ما في السَّماوات والأرض من الذوات والمعاني[2]، وعدلَ عن (مَنْ)؛ لكثرة غير العاقل، والإشارة إلى ضعف العقلاء في مقام بيان عظمة الله، والإشارة إلى الذّوات والأوصاف والأحوال.

معنى حرف الجر ﴿فِي﴾ ودلالته:

إيذانٌ بتغلغلِ ملكهِ وانتشارِه في السماوات وفي الأرض

عبَّر البيانُ الحكيم بحرف الوعاء ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للإشارةِ إلى تغلغلِ ملكه وسلطانه في كلِّ السماوات وفي كلِّ الأرض، فله الملكُ كلُّه، ومجيء الظَّرفية بعد ﴿مَا﴾ الَّتي أفادتِ العمومَ يزيدُ العمومَ عمومًا، والشُّمولَ شمولًا، فعمَّ كلَّ شيء في ظاهرِ السَّماواتِ والأرضِ وباطنهما.

سرُّ تكرار (ما) الموصولة:

تأكيدُ كمالِ ملكِ اللهِ لعوالمَ كثيرةٍ متنوِّعة تستحقُّ الإفرادَ والاهتمام

أعادَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لتأكيد شمولِ ملك الله، وكأنَّ كلًّا من السماوات والأرض تضمُّ عوالمَ كثيرةً متنوِّعةً تستحقُّ الإفرادَ والاهتمام، وكلٌّ منهما مجالٌ مستقلٌ لعظمةِ الله وملكه، وللدَّلالة على ملكِ الله لجميع ما في الأرض؛ إبطالًا لما قد يتوهَّمه الجاهلون أنَّ لهم في الأرض ملكًا، كما أنَّ تكرارَ الاسم الموصول يُضفي وقعًا موسيقيًّا وجماليًّا يتناسبُ مع فخامة المعنى.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 161.

معنى اللام ودلالتها في ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

لا شـيءَ فـي الأرضِ خارجٌ عن ملكه سبحانه

اللام في الأرض في قوله: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، تشملُ جنسَ الأرض، أي: من جَوهرٍ وعَرَضٍ صامتٍ وناطقٍ، فلا شيءَ خارجٌ عن ملكه يحوجه إلى ظلم، أو إخلافِ وعد.

سرُّ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

السـماواتُ أعـجـبُ وأدلُّ على كمالِ قدرته سبحانه

قدَّم النَّظمُ الحكيم ذِكرَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾؛ مراعاةً للسبقِ في الخلقِ، ومراعاةً لمقام عظمةِ الله وملكه؛ لكون السماوات أعجبَ وأدلَّ على كمالِ قدرته سبحانه، فإنَّ الآيات في السماوات أعظمُ منها في الأرض؛ لسعتها وعظمها، وما فيها من كواكبها، وشمسها، وقمرها، وبروجها، وعلوِّها، واستغنائها عن عمدٍ تقلُّها، ولأنَّ السَّماوات أعظمُ من الأرض شأنًا وخَلقًا، وأشرفُ ذاتًا وصفةً[1]، فهي متعبَّدُ الملائكةِ المقدَّسين على تفاوتِ مراتبهم، وقبلةُ الدُّعاء، ومعراجُ الأرواح الطَّاهرة، ولا معاصي ومنْكرات تحصلُ فيها، بخلاف الأرض، التي وإن كان فيها الأنبياء؛ فقد وقعت فيها المعاصي، وحوت على المفسدين[2]، كما أنَّ تقديم السماوات على الأرض عادةُ القرآن الكريم.

معنى اللام ودلالتها في ﴿لِيَجْزِيَ﴾:

بين تعليلٍ يبرزُ ثـراءَ المعنى بتقرير كمالِ قـدرة الله وعاقبةٍ تؤكِّدُ حتميَّةَ الجزاء

اللّامُ في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ إمّا للتعليل؛ إذ جعَلَ الجزاءَ علَّةً لثُبوتِ ملكِ اللهِ لما في السَّمواتِ والأرضِ، أو أنَّ الجزاءَ علَّةٌ أمْرِ الله النَّبيَّ ﷺ بالإعراض عن هؤلاء المشركين، أي: أعرض عنهم؛ لأنَّ اللهَ يعاقبهم كافيًا لك - يامحمد - ما أهمَّك من ذلك[3]، أو أنْ يكون ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلِّقًا بـ﴿أَعْلَمُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 468.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 77.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 268، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 66.

عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أيْ: مِنْ خَصائِصِ عِلْمِهِ الَّذي لا يَعْزُبُ عَنهُ شَيءٌ أنْ يَكونَ عِلْمُهُ مُرَتَّبًا عَلَيهِ الجَزاء[1]، كأنَّه قيلَ: فيعلمُ ضلالَ من ضلَّ، واهتداءَ من اهتدَى، ويحفظُهما؛ ليجزيَ الذين أساؤوا بعقابِ ما عملوا من الضَّلالِ[2]، أو متعلِّقًا بقوله: ﴿ضَلَّ﴾ و﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ لا بالعلم ولا بخلقِ ما في السماوات، والمعنى: هو أعلمُ بمن ضلَّ، واهتدى؛ ليجزي من ضلَّ، واهتدى، الجزاءَ، واللّه أعلم به[3]، أو أنْ تكون لامُ العاقبة أو الصَّيرورة، بمعنى: أنَّ عاقبةَ أمرِ الخلق أن يكون فيهم محسنٌ ومسيءٌ؛ فللمسيء السوءى وللمحسنِ الحسنى، وهي متعلِّقةٌ بما دلَّ عليه معنى الملك[4].

دلالة التعبير بالمضارع ﴿لِيَجْزِيَ﴾:

عـقـابُ الـلـه لـمـن يـؤذي نبيَّه مستمرٌّ متجدِّد

في التَّعبير بالمضارعة في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾، مبالغةٌ في تسليةِ النبي ﷺ والتخفيفِ عنه؛ لأنَّ عقابَ اللّه تعالى لمن يؤذي نبيَّه، ويقفُ في وجه الدَّعوةِ مستمرٌّ متجدِّدٌ بما يكون كافيًا له ما أهمَّ من ذلك.

الغرض من التَّعبير بالمفعول به اسمًا موصولًا: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

في الموصـوليَّـة علّيةُ عقابِ الله لـلـمـشـركـين، وهـي إساءتهم العمل

في التعبيرِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلته تركيزٌ على الصِّلة؛ لأنَّ القرآنَ يأتي بالاسمِ الموصول عندما تكون صلته هي الَّتي عليها مدارُ الحكم، ومِنْ ثَمَّ يومئُ الاسمُ الموصول وصلته بعلَّة عقابِ اللّه لهم، وهي إساءتهم العملَ، وبذلك دفعَ اللّهُ عن نفسه الظُّلمَ، وأنَّه لا يُعذِّبُ إلّا عن ذنبٍ[5].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 120.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 268.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 362.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 268.

دلالةُ التَّعبير بالماضي المسند إلى ضمير الجماعة:

من عـدْلِ اللهِ ألّا يـجـازي إلّا بـتـحـقُّقِ وقـوعِ السوء

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالماضي المجموع ﴿أَسَـٰٓـُٔواْ﴾، في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ الأعمال السيئة منهم من كفرٍ وشركٍ ومعاصٍ واجتماعهم عليها؛ لأنَّ الأصلَ في الماضي أنَّه يدلُّ على حدثٍ وقعَ، وانقطعَ، ومضى، وانقضى، وفي هذا إشارةٌ إلى عدْلِ الله فيهم.

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ و﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾:

الجـزاءُ متعلِّقٌ بـالـعـمـل إمّـا مـمـاثـلـةً وإمّـا تفضُّلًا

الباءانِ في قولِه: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾، وقولِه: ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾؛ لتَعديةِ فِعْلَي ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ ﴿وَيَجۡزِيَ﴾؛ فما بعْدَ الباءَينِ في معْنى مَفعولِ الفِعلَين، فهما داخِلَتانِ على الجزاءِ، وقولُه: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ حينَئذٍ تَقديرُه: بمِثلِ ما عَمِلوا، أي: جَزاءً عادِلًا مُماثِلًا لِما عَمِلوا، فلذلك جُعِلَ بمَنزلةِ عَينِ ما عَمِلوه على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، وقوله: ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾، أي: بالمثوبة الحسنى، أي: بأفضلِ ممّا عملوا[1].

دلالة (ما) بين الموصولة والمصدريَّة:

بين عمومِ الجزاءِ لـلـمـسـيـئـين وتأكيده

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ إمّا اسم موصول، أي: ليجزي المسيئينَ؛ بسببِ ما عملوا من الضَّلالِ، وغرضُ التعبير بالاسم الموصول إرادةُ العموم، أي: بسببِ كلِّ الَّذي عملوا من أقوالٍ وأفعال، أو مصدرية، أي: ليجزي المسيئين بسببِ عملهم، وغرضُ التعبير بالمصدر تأكيدُ الجزاء.

سرُّ إيثار فعل ﴿عَمِلُواْ﴾ ماضيًا مجموعًا:

عـمـومُ سـوء المشركين للقول والفعل والنّيَّة وتـحـقُّـق ذلـك منهم

عبَّر البيانُ الحكيم بلفظ العمل دون الفعل، في قوله تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾؛ للدَّلالة على سوء حالهم، فالعملُ لا يُقالُ إلّا في ما كان عن فكرٍ ورويَّةٍ، بخلاف الفعل[2]، والعملُ عامٌّ يشملُ كلَّ عملٍ يقومُ به

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 120.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عمل).

سواءٌ كان قولَ لسانٍ أم فعلَ جوارحٍ أم نيَّةً يعزمُ عليها، والتَّعبيرُ بصيغة الماضي تشيرُ إلى عدلِ الله فيهم، فالجزاءُ كان عن أعمالٍ قد تحقَّق وقوعها منهم.

بلاغة التَّشبيه البليغ في جملة: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾:

تشبيهٌ يُبرزُ كمالَ العدلِ الإلهي، ويجعلُ الإحساسَ بالجزاء أكثرَ وقعًا

تقدير ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾، في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾: بمثل ما عملوا، أي: جزاءً عادلًا مماثلًا لما عملوا، فلذلك جُعِلَ بمنزلةِ عين ما عملوه على طريقة التَّشبيه البليغ[1]؛ إذ شُبِّه الجزاءُ بعين العمل، وحُذِفَ وجهُ الشَّبهِ وأداةُ التَّشبيه، وهذا يدلُّ على دقَّةِ العدلِ الإلهي وكمالِهِ، فكأنَّ العقوبةَ هي صورةُ العمل نفسها، وهذا التَّصويرُ للجزاء مطابقًا للعمل يُخيَّلُ للمخاطَبِ أنَّ المسيء يرى عمله ماثلًا أمامه في صورة العقوبة، فيُشعرُه بالعدالة التامَّة، ويجعلُ الإحساسَ بالجزاء أكثرَ وقعًا في النَّفس.

معنى العطف ودلالته في ﴿وَيَجۡزِيَ﴾:

الكلُّ يُجزى، لكن بحسبِ عمله

العطف بالواو في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، يدلُّ على حكمِ الله بالجزاء لكلٍّ من المحسنين والمسيئين، فكلتا الفئتان حاضر في مشهد الجزاء، ولكن مع التَّغاير في المقام، فالجزاءُ الأوَّلُ جزاءٌ عادلٌ مقابلَ الإساءة، والثاني: جزاءُ فضلٍ وإكرامٍ مقابلَ الإحسان، لكن الواو لا تفيدُ التَّماثلَ في النتائج.

سرُّ تكرار جملة: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ﴾:

توكيدُ خصوصيَّة الجزاء للمحسنين

أطنبَ البيانُ الحكيم بتكرار جملة: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾، دون الاكتفاء بذكر جزاءِ المحسنين مباشرة، فلم يقل: ليجزي الَّذين أساؤوا والمحسنين؛ للإشارة إلى اختلافِ نوع الجزاء في كلٍّ منهما في الطَّبيعة والمقام، ولتأكيدِ خصوصيَّةِ الجزاء للمحسنين، وأنَّه ليس مجرَّد مقابل لفعلهم، بل هو جزاءٌ خاص متميِّز، يتجاوز

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 127.

العمل إلى الفضل: ﴿بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وهي الجنَّة وما فيها من خير، فلإحسانهم قيمةٌ مستقلَّة، يستحقُّ الوقوفَ عليها، وعدم دمجها مع جزاء المسيئين في صيغة واحدة، أي: جاء التَّعبير مغايرًا؛ ليلائمَ طبيعةَ كلِّ جزاء.

دلالة التَّعبير بالماضي مسندًا إلى ضمير الجماعة:

الإحسانُ واقعٌ متحقَّقٌ من أهل الجنَّة وصفةٌ لهم

التعبيرُ بالماضي مجموعًا في قوله: ﴿أَحۡسَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق وقوعه، أي: وقوع فعل الإحسان منهم، وكثرةِ عددِ المحسنين واجتماعهم عليه، والتَّرغيب في الإحسان الجماعي، وفي هذا إيذانٌ باشتراك جميع أهلِ الجنَّة بالإحسان، وتنوُّع أفعالِ الإحسان من الثَّبات على الدين، والصَّبر عليه، وعلى أذى أعدائهم وغير ذلك.

دلالة التَّعبير بلفظ (الحُسنى) دلالة وصيغة:

مبالغةٌ في مدحِ عملِ المحسنين ومدحِ ثوابهم

(الحُسۡنَى) على وزن فُعلى، مؤنَّث الأحسن، في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وهي إمّا صِفةٌ لِموصوفٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه (يَجزي)، وهي المَثوبةُ بمعْنى الثَّواب، والمعنى: ليجزي الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى، أي: بأفضل ممّا عملوا، وفيه إشارةٌ إلى مُضاعَفةِ الحَسَناتِ، والثبوتِ في الجنان الذي هو في غايةِ الحسن ما بعدها غاية، كقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [النمل: 89][1]، أو صفةٌ لموصوف محذوف، وهو أعمالهم، والمعنى: بسببِ أعمالِهم الحُسْنَى[2].

وقد أفادَ التعبيرُ بصيغة (فُعلى) المبالغةَ في الوصف، إذ صيغةُ (فُعلى) تدلُّ على قوَّة الوصف؛ لأنَّها مؤنَّث أفعل، سواءٌ في تفخيم أعمالهم الصالحة أو تفخيمِ المثوبة التي أكرمهم اللهُ بها، وهي الجنَّة.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 67، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 120.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.

بلاغة التعبير بالمقابلة بين الجزاءين:

جـزاءُ السيئة عـدلٌ، وجـزاءُ الإحسان فضلٌ

قوله تعالى في حقِّ المسيء ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾، وفي حقِّ المحسن ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾، فيه مقابلةٌ لطيفة؛ لأنَّ جزاءَ المسيء عذابٌ، فنبَّه على ما يدفعُ به الظُّلمَ عن نفسه سبحانه، فهو لا يعذب إلّا عن ذنبٍ، بخلاف قوله في حقِّ المحسنين ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾؛ إذ لم يقل: (بما عملوا)؛ لأنَّ الثوابَ إنْ كان لا على حسنةٍ يكون في غايةِ الفضل، فلا يخلُّ بالمعنى، هذا إذا قلنا: الحسنى هي المثوبة بالحسنى، وأمّا إذا قلنا: هي الأعمال الحسنى؛ ففيه لطيفةٌ غير ذلك، وهي أنَّ أعمالهم لم يُذكرْ فيها التَّساوي، وإنَّما ذُكِرَ الحسنى؛ ليُشير إلى الكرمِ والصفح؛ إذ ذكر أحسن الاسمين[1].

بلاغة التعبير باللَّف والنَّشر في الآية:

خـطـابٌ واضـحٌ ومـنـظَّـمٌ يُـعـزِّزُ الفهمَ، ويحقِّقُ التَّأثيرَ الأقوى في النَّفس

جاء تَرتيبُ التَّفصيلِ لجَزاءِ المُسيئينَ والمُحسنينَ، في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾، على وفْقِ تَرتيبِ إجْمالِه الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُرتَّب[2]، فقد جاء النشرُ على وفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، بما يجعلُ الخطابَ واضحًا ومنظَّمًا، فلا يخلطُ بين الحالات أو الجزاءات، ويعزِّزُ فهْمَ المستمعِ أو القارئ؛ إذ يتتبَّع الحكاية أو الموقف تدريجيًّا وبترتيب منطقي، ويحقِّقُ التَّأثيرَ الأقوى في النَّفس، ويُسهِّلُ استيعاب المعنى.

كما أنَّ هذا التَّرتيبَ - من تقديم ذكرِ جزاء الَّذين أساؤوا على الَّذين أحسنوا - تحقَّقَ به التَّناسب مع قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾، الَّذي جاء على البدليَّة أو النَّعت.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 268.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 120.

موقع ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ ممّا قبله ودلالته:

تـبـيِّنُ صـفـاتِ المحسنين الَّذين استحقّوا الجزاء بالحسنى

﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ إمّا بدلٌ من الموصول الثاني، وهو: ﴿ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾، أي: إنَّ اللّهَ يصفُ المحسنين بأنَّهم يجتنبون كبائرَ الإثم والفواحش إلّا اللَّمم، والبدليَّة توضِّح معنى الإحسان فيهم، لا مجرَّدَ وصفٍ خارجي، أو إعرابه نعتٌ، أي: الَّذين أحسنوا، واجتنبوا كبائر الإثم والفواحش، أي: فعلوا الحسنات، واجتنبوا المنهيّات، وذلك جامع التَّقوى، أو بيانٌ للموصول السابق، كأنَّه يقول: أعني بهم الَّذين يجتنبون، وهذا قريبٌ من النعت، لكنَّه يُزيلُ الإبهامَ أو التعميمَ في الإحسان، ويُبرزُ القصدَ والتفسير، أو منصوبٌ على المدح[1]، فتكون جملة مستقلَّة منقطعة من حيث الإعراب، لكنَّها مرتبطةٌ سياقيًّا، وتجتمعُ الأوجهُ جميعها في أنَّها تبيِّنُ صفاتِ المحسنين الَّذين استحقّوا الجزاءَ بالحسنى، بتجنُّبهم الكبائرَ والفواحش، وتنبِّه على أنَّ اجتنابَ ما ذُكر يُعدُّ من الإحسان؛ لأنَّ فعلَ السَّيئات ينافي وصفهم بالذين أحسنوا، فإنَّهم إذا أتوا بالحسنات كلِّها، ولم يتركوا السَّيئات؛ كان فعلهم السيئات غيرَ إحسان، ولو تركوا السيئات، وتركوا الحسنات؛ كان تركهم الحسنات سيئات[2].

دلالة التعبير بالمضارع المسند إلى ضمير الجماعة:

مـن صـفـاتِ المحسنين تجدُّدُ اجتنابِ الكبائرِ منهم واستمراره

تدلُّ صيغةُ المُضارِعِ ﴿يَجۡتَنِبُونَ﴾ على تَجدُّدِ اجتِنابِ المحسنين لكبائر الإثم واستمراره[3]، فهُم يكلِّفون أنفسهم، ويجهدونها على أنْ يتركوا ما عظَّمَ الشّارعُ إثمه بعد تحريمه بالوعيد والحدِّ[4]، وفي هذا إشعارٌ بأنَّ تركَ المعصية سواءٌ كانت بارتكابِ المحرَّمات أو بتركِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 120 - 121.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 67.

الواجبات ينبغي أن يستمرَّ عليه المؤمن، ويجعلَ الاجتنابَ عنها دأبًا له وعادة، حتى يستحقَّ المثوبةَ الحسنى، فإنَّ مَنِ اجتنبَ عنها مرَّة، وانهمكَ عليها في باقي الأزمان لا يستحقُّها بخلاف الحسناتِ المتطوِّع بها، فإنَّ من أتى بها، ولو مرَّة يُؤجَر عليها[1].

سرُّ الإضافة في ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾:

إضافةُ ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ إلى ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾، إضافةٌ بيانيَّةٌ، جاءتْ بيانًا للفظ ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾، بأنَّها الآثامُ الكبيرة فيما شرع الله، وهي ما شدَّدَ الدينُ التحذيرَ منه، أو ما عظَّمَ الشارعُ إثمه بعد تحريمه، بأنْ ذكرَ له وعيدًا بالعذاب، أو وصفَ على فاعله حدًّا[2]، ولعل الحكمةَ في عدم تسمية الحسنات العظيمة بكبائر الحسنات؛ لأنَّ الحسنةَ مهما كانت عظيمة؛ فهي ليست كبيرة في حقِّ الله، بخلاف الآثام الكبيرة فهي كبيرةٌ في حقِّ الله العظيم.

بيانٌ للفظ (كبائر) بأنَّها الآثامُ الكبيرة فيما شرعَ الله

تنوُّع القراءات في لفظ ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ وثراء المعنى:

قرأ الجمهور بصيغة جمع (كبيرة): ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَف بصيغةِ الإفرادِ والتَّذكير: ﴿كَبِيرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾[3]، ولا فرق في المعنى؛ لأنَّ اسمَ الجِنْسِ يَسْتوي فيه المُفرَدُ والجمْعُ[4]، ولكن صيغة الجمع وهي صيغة جمع تكسير، تدلُّ على التَّعظيم في حجم المعصية، لا فقط كثرتها، وعلى التَّنويع في صور الكبائر، فالجمعُ يُفيد أنَّها ليستْ نوعًا واحدًا، بل تشملُ أصنافًا متعدِّدة من المعاصي الكبيرة، وهذا يشيرُ إلى فضلِ هؤلاء المحسنين وعظيم مجاهدتهم لأنفسهم، كما أنَّ هناك من فسَّر ﴿كَبِيرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ بالشرك، لقوله

من صفات المحسنين اجتنابُهم لأصنافِ الكبائر المتنوِّعة وأعظمها الشرك

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 138.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 67، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 121.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2: 362.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 121.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: 48]، وبذلك تشيرُ قراءةُ الإفراد إلى عظيم جُرم الإشراك.

دلالة العطف:

عطْفُ الفواحشِ على كبائر الإثم في قوله تعالى: ﴿يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، يَقْتضي أنَّ المعطوفَ بها مُغايِرٌ للكبائرِ، ولكنَّها مُغايرةٌ بالعُموم والخُصوصِ الوجهيِّ، فالفواحشُ أخصُّ من الكبائر، وهي أقوى إثْمًا، وهي الفعلات التي يُعدُّ الذي فعلها متجاوزًا الكبائرَ مثل الزنى، والسرقة، وقتل الغيلة[1]، وهذا العطفُ من باب عطف التَّرقّي، أي: الذين يجتنبون الكبائر، وما هو أفحش منها.

من إحسانهم أنَّهم يجتنبون الكبائر وما هو أفحش منها

سرُّ جمع (الفواحش):

يدلُّ التَّعبير بصيغة الجمع في لفظ (الفواحش)، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، على أنَّ المراد بها ما فحش من الكبائرِ خُصوصًا، وزادَ عنها في الفحش[2]، فهي الآثامُ الكبيرة المشتملة على مفاسد ممّا قبُح من الأقوال والأفعال، مثل الزنى، والسرقة، وشرب الخمر وقتل الغيلة، ما فُحش من الكبائرِ خُصوصًا، وزاد عنها في الفحش لا الزنى فقط[3]، وفي هذا مزيدُ مدحٍ لهؤلاء المحسنين الذين جاهدوا أنفسهم على ألّا تقعَ في أيِّ فاحشة من هذه الفواحش الكثيرة التي يكرهها الطبع، وينكرها العقل، ويستخسُّها.

في امتناعِ المحسنين عن الفواحش بجميع صورها مزيدُ مدحٍ لهم

دلالة الاستثناء بـ ﴿إِلَّا﴾:

استِثناءُ اللَّمم في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾، استِثناءٌ مُنقطِعٌ بمعْنى الاستِدراكِ؛ لأنَّ اللَّمَمَ ليس مِن كبائرِ

في الاستدراك تمييز اللَّمم عن الكبائر وبيانٌ لرحمة الله

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 121.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 8/ 160.

الإثمِ، ولا مِن الفواحشِ، فهو مقابل لهما في الآية، أي: لكن اللمم معفوٌّ عنه، فمَن خالطه لا يخرجُ عن عِداد من أحسن، ووجه الاستدراك أنَّ ما سُمّي باللَّمم ضربٌ من المعاصي المحذَّر منها في الدين، فقد يظنُّ الناسُ أنَّ النهيَ عنها يلحقها بكبائر الإثم، فلذلك حقَّ الاستدراك، وفائدةُ هذا الاستدراك عامَّةٌ وخاصةٌ: أمّا العامَّة؛ فلكي لا يعاملَ المسلمون مرتكب شيء منها معاملةَ مَن يرتكبُ الكبائر، وأمّا الخاصةُ؛ فرحمةٌ بالمسلمين الذين قد يرتكبونها، فلا يقلِّل ارتكابها من نشاطِ طاعة المسلم، ولينصرف اهتمامه إلى تجنُّب الكبائر، فهذا الاستدراك بشارةٌ لهم، وليس المعنى أنَّ الله رخَّص في إتيان اللمم[1]، وبلاغة استعمال ﴿إِلَّا﴾ موضع (لكن) هي الإشارة إلى أنَّ الذَّنبَ الصغير يمكن أنْ يكون كبيرًا باستهانته، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: 15][2]، ومن العلماء من يرى أنَّ الاستثناء هنا متَّصل، وأنَّ المراد باللمم ارتكابُ شيءٍ من الفواحش، ثم التوبة منها توبةً صادقة نصوحًا[3].

الغرض من تعريف: ﴿ٱللَّمَمَ﴾:

اللَّمـمُ هي الصغائر في مقابلة الكبائر

التعبيرُ باللَّمم معرَّفًا؛ للدَّلالة على أنَّه الفعلُ المعروف بأنَّه الحرام، الذي هو دون الكبائر والفواحش في تشديد التحريم، وهو ما يندرُ ترك الناس له، فيُكتفى منهم بعدم الإكثار من ارتكابه، ويسمّيه علماء الشريعة الصغائرَ في مقابلة تسمية النوع الآخر بالكبائر[4]، أو هو مقاربة الذنب ثم الانحجازُ عنه[5]، وقد آثر البيانُ القرآني التعبير بلفظ اللمم؛ للدَّلالة على أنَّ فاعلَهُ لا يُكثرُ فعله، ولا يطيلُ البقاء عليه، أو يقاربه دون الوقوع، ثم سرعان ما ينحجزُ عنه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 121.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 67.
(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 76.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 122.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (لم).

يطيل فعله، وإنَّما سرعان ما يتوبُ إلى الله، ويستغفره؛ لأنَّ "اللَّمَمَ اسمُ مصدر (ألَمَّ) بالمكان إلمامًا؛ إذا حلَّ به، ولم يطلِ المكث"[1].

موقع جملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ممّا قبله ودلالته:

فصلَ البيانُ القرآني جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾، عمّا قبلها؛ لِما بينهما من كمالِ اتصال، فقد جاءت جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾؛ تَعليلًا لاستِثناءِ اللَّمَم مِن اجتنابِهم كَبائرَ الإثم والفواحش، شرْطًا في ثُبوتِ وصْفِ الَّذين أحْسَنوا لهم[2]، وتَنْبيهًا على أنَّ إخراجَه عن حُكمِ المُؤاخَذةِ به ليسَ لخُلُوِّهِ عن الذَّنْبِ في نفْسِه، بل لِسَعةِ المَغفرةِ الرَّبّانيَّة[3].

العفو عن اللَّمم ليسَ لخُلوِّهِ عن الذَّنْبِ بل لِسَعةِ المَغفرةِ الرَّبّانيَّةِ

سرُّ التوكيد بـ﴿إِنَّ﴾:

أكَّد البيانُ الحكيم سعةَ مغفرة الله، بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾؛ لأنَّ مِن عادةِ الملوك ألّا يغفروا لمن تكرَّرت ذنوبه إليهم، وإنْ صغرت، ممّا يجعل السامع قد يستعظمُ أنْ يغفرَ ملكُ الملوك سبحانه مثل هذا[4].

تـوكـيـدُ سـعـةِ مـغـفـرة الـلـه تـعـالى ورحمته وإحسانه

سرُّ التعبير بلفظ الربوبيَّة مضافًا إلى ضمير النبي ﷺ:

في التَّعبير بلفظ الربوبيَّة ﴿رَبَّكَ﴾ دونَ الاسم العَلَم، إشعارٌ بأنَّ سَعةَ المَغفرةِ رِفقٌ بعبادِه الصّالحينَ، شأْنَ الرَّبِّ مَعَ مَربوبِه الحقِّ[5]، والمعنى: إنَّ ربَّك المحسن إليك بإرسالك رحمة للعالمين والتَّخفيف عن أمَّتك[6]، وفي إضافة (ربّ) إلى ضمير النبي ﷺ دون ضمير الجماعة إيماءٌ إلى أنَّ هذه العناية بالمحسنين من أمَّته قد حصلتْ لهم ببركته[7].

مـن إحـسـانِ الربِّ بالمحسنين إرسـالُ الـنـبـي إليهم والتخفيف عنهم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 122.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 122.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 68.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 122.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 68.
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 122.

بلاغة التعبير بالاستعارة، وسر الإضافة:

مـغـفـرةُ الـلـه ورحمته وسعت وشـمـلـت كـلَّ شيء

الواسعُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ الكثيرُ المَغفرةِ، وقد استعيرتِ السَّعةُ لكَثرةِ الشُّمولِ؛ لأنَّ المكانَ الواسِعَ يُمكِنُ أنْ يَحتويَ على العدَدِ الكثيرِ ممَّنْ يَحِلُّ فيه، أي: وسعتْ رحمته ومغفرته كلَّ شيء، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: 7][1]، وفي الإضافة ترغيب في استمطار رحمة الله ومغفرته.

دلالة التعبير بالضَّمير ﴿هُوَ﴾:

تـأكـيـدٌ عـلـى أنَّ رحـمـةَ الـلـه الـواسـعـة صادرةٌ عن علمٍ شاملٍ للظواهر والبواطن

التَّعبيرُ بالضَّمير ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ للتأكيد على أنَّ الجملةَ استئنافٌ مقرِّر لِما قبلَها[2]، وأنَّ رحمةَ الله الواسعة صادرةٌ عن علمٍ شاملٍ للظواهر والبواطن[3]؛ لأنَّه لمّا وصفَ الذين أحسنوا، فكان ربَّما وقعَ في وهم أحدٍ أنَّه لا يعلمهم سبحانه إلّا بأفعالهم، وربَّما قطعَ أنَّ مَن عملَ بمضمون الآية أنَّه ممَّن أحسن، فأكَّدَ القرآن أنَّ الله هو أعلمُ بذواتهم وأحوالهم منهم بأنفسهم[4].

دلالة التعبير بصيغة التفضيل: ﴿أَعْلَمُ﴾:

لا يـعـزبُ عـن عـلـمـه بـذواتِ الخلق وأحوالهم شيء سبحانه

العلم بأحوال المخاطَبين صفةٌ مقصورةٌ عليه، ولذا فإنَّ التعبيرَ بصيغة أفعل التفضيل في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ اللهَ لا يعزبُ عن علمه بذواتكم وأحوالكم شيء، فعلمه شاملٌ للظاهر والبواطن[5].

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِكُمْ﴾، وسر التعبير بالقيد ﴿بِكُمْ﴾:

علمُ الله محيطٌ بالمخاطَبين لا ينفكُّ عنهم

الباءُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ للإلصاقِ، أي: علْمُه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 123.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 77.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 68.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 68.

سبحانه ملتصقٌ بالمخاطَبين، محيطٌ بذواتهم وأحولهم لا ينفكُّ عنهم، وأفادَ القيد ﴿بِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ بأنَّ ربَّهم أعلَمُ بأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم التي ستصدرُ منهم مِن أنفُسِهم، فهو يُدبِّرُ لهم ما لا يَخطُرُ ببالِهم[1].

دلالة الاستئناف في جملة: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾:

جُملةُ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[2]؛ لِما تَضمَّنَتْه مِن الامتِنانِ، فكأنَّ السّامِعينَ لَمّا سَمِعوا ذلك الامتِنانَ، شَكَروا اللّهَ، وهجَسَ في نُفوسِهم خاطرُ البَحثِ عن سَببِ هذه الرَّحمةِ بهم، فأُجيبوا بأنَّ ربَّهم أعلَمُ بحالِهم مِن أنفُسِهم؛ فهو يُدبِّرُ لهم ما لا يَخطُرُ ببالِهم[3].

بيانٌ لسببِ مغفرة الله الواسعة بالمحسنين

سرُّ تقييد العلم بالظرف: ﴿إِذْ﴾:

﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ظرفٌ لِما مضى من الزمن، متعلِّقٌ بـ﴿أَعْلَمُ﴾، أي: هو أعلمُ بالناس من وقتِ إنشائه إيّاهم مِنَ الأرض، وهو وقتُ خلقِ أصلهم آدم[4]، وفي هذا تطمينٌ للمؤمنين بأنَّ ما يشرعه لهم هو خيرٌ لهم.

علمُ الله لا يعزبُ عن خلقه من وقتِ إنشاءِ أصلهم من ترابِ الأرض

دلالة التعبير بالماضي ﴿أَنشَأَكُم﴾ مادة وصيغة:

آثرَ البيانُ القرآني فعلَ الإنشاء دون غيره كالخلق، أو الإيجاد، فلم يقلْ: (إذْ خلقكم، أو أوجدكم مِنَ الأرْضِ)؛ لكون الإنشاءِ يشملُ الإيجادَ ومرحلةَ النموِّ والتكامل إلى قربِ تمامِ القوَّة والاستواء[5]، وهو بذلك أنسبُ للسياق الذي يتحدَّثُ عن مراحلِ وجود الإنسان، والتَّدرُّج في خلقه، وأدلُّ على كمال قدرةِ الله سبحانه وفضله على

إنشاءٌ محقَّقٌ أدلُّ على كمالِ قدرة الله سبحانه وفضله على عباده

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 124.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 124.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 124/ 124.
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نشأ).

عباده، والتَّعبير به ماضيًا؛ لكونه أمرًا واقعًا محقَّقًا، ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ ينكره، وأمّا إضافته إلى ضمير المخاطَبين - مع أنَّ الإنشاءَ من تراب كان لأبيهم آدم ﷺ - للإشارة إلى المساواة في الأصل الإنساني عند الناس جميعًا؛ فالناسُ كلُّهم من آدم ﷺ.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: "حين أنشأكم ابتداءً من الأرض - التي طبْعُها طبع الموت، البرد واليبس - بإنشاء أبيكم آدم ﷺ منها، وتهيئتكم للتكوين"[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ إنشاءهم من الأرض يستلزمُ ضعفَ قدرتهم على تحمُّل المشاقِّ مع تفاوتِ أطوار نشأة بني آدم، وأنَّ هذا الضعفَ المقتضي لسعةِ التجاوز بالمغفرة مقرَّرٌ في علم الله من حين إنشاء آدم من الأرض[2].

إنشاءٌ وضعفٌ قدرة عن تحمُّل المشاقِّ؛ يقتضي رحمة الله

معنى واللام ودلالتها في: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

اللام في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ عهديَّة، وهي ترابُ الأرض المعهودة عند العرب[3]، أي: في خلقكم في ضمنِ إنشاءِ أبيكم آدمَ ﷺ من تراب الأرض، وذكر إنشاء أصل الإنسان من الأرض، وهي عنصرٌ ضعيفٌ يقتضي ملازمةَ الضعف لجميع الأفراد المنحدرة من ذلك الأصل[4].

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾:

(إذ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ معطوفةٌ على ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وكلاهما متعلقان بـ﴿أَعْلَمُ﴾، والمعنى: "أعلم بكم من وقتِ إنشائه إياكم من الأرض، ضمن خلقه لأبيكم آدم، ومن وقتِ أنْ كنتم أجنَّة في بطون أمهاتكم"[5]،

في العطف إحاطةُ علم الله بأحوال عباده كلِّها وبملازمة الضعف لهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 68.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 124/ 124.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 29/ 272.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 124.
(5) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 78.

وفي هذا العطف دلالةٌ على إحاطة علم الله بأحوال عباده كلِّها، وبملازمة الضعفِ لهم، سواءٌ في أصلِ خِلقتهم، أو في كونهم أجنَّةً في بطن أمهاتهم، بما يقتضي سعة التجاوز بالمغفرة عنهم.

سرُّ تكرار (إذ):

اختلافٌ بين مرحلتين مهمتين في الخلق المرحلة الترابيَّة، والمرحلة الجنينيَّة

أطنبَ البيانُ الحكيمُ بتكرار (إذ)، فلم يقلْ: هو أعلمُ بكم إذ أنشأكم من الأرض، وجعلكم أجنَّة في بطون أمهاتكم؛ وذلك لبيان الاختلاف بين مرحلتين مهمتين في الخلق: المرحلة الترابيَّة والمرحلة الجنينيَّة، وأنَّ لكلٍّ منهما خصائصهما؛ ولذا جعل (إذ) في كلا الموضعين تتعلَّق بلفظ ﴿أَعْلَمُ﴾، وهذا الاختلافُ يُظهر عظمةَ الخالق سبحانه.

دلالة التعبير بالضمير في: ﴿أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾:

مزيدُ الامتنان ورائحةُ الاهتمام

أفادَ ذِكرُ الضمير ﴿أَنتُمْ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾، جعْلَ الجملةِ اسميَّة، بما يفيدُ القوَّةَ والثبات، فلم يقلْ: إذ أنشأكم من الأرض، وجعلكم أجنَّة؛ وذلك للإشارةِ إلى ثباتِ الجنين، واستقراره في الرحم، في جميعِ مراحله، من النطفة إلى العلقة إلى المضغة، بل إنَّ الاستقرارَ هو أهمُّ مايحتاجه الجنين، وفي هذا مزيدُ الامتنان ورائحةُ الاهتمام، أي: أنتم دون غيركم؛ تذكيرًا بهذه النعمة العظيمة، كما أنَّ في ذلك تفنُّنًا في التعبير عن المرحلتين: الترابية والجنينية.

الغرض من تنكير ﴿أَجِنَّةٌ﴾ وجمعها:

أجنَّةٌ كُثُر في حالةِ ضعفٍ لا تملكون لأنفسكم شيئًا

﴿أَجِنَّةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمعُ جنين مثل سرير وأسرَّة[1]، وهو على وزن أفعِلة، وهذا من جموع القلَّة، والتنكير هنا للتهوين التحقير، أي: إنَّكم كنتم في حالٍ ضعيف، مستورين لا تملكون لأنفسكم شيئًا، وبهذا يذكِّرهم القرآن بعجزهم وضعفهم الأوَّل.

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 238.

معنى حرف الجر ﴿فِي﴾ ودلالته:

إيحاءٌ بالضعفِ الكامل والاحتياجِ المطلق للجنين المستتر والمغمور في رحمِ أمِّه

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ للظَّرفيَّة المكانيَّة الحقيقيَّة، أي: إنَّ الأجنَّةَ داخلَ بطون أمَّهاتكم في موضعِ الاستقرار المعروف - وهو الرحم - كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: 6]، ومع الظرفية المكانية إيحاءٌ بالضعفِ الكامل، والاحتياجِ المطلق، فهي ترسمُ صورةَ الإنسان في أضعفِ أحواله، وهو جنينٌ مستترٌ ومغمورٌ في رحم أمِّه، لا يملكُ لنفسه حركةً ولا رزقًا، ممّا يهيّئ النفسَ لتلقّي التَّذكيرِ والاعتبارِ بقدرةِ الله ورحمته في الخلق والتدبير.

سرُّ الإضافة:

كلُّ إنسانٍ له بطنٌ مخصوصٌ نشأ فيه بما يعزِّزُ التذكير بالخلق والقدرةِ الإلهية

الإضافة في ﴿بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ إضافة بيانيَّة، وهو يدلُّ هنا على موضعِ الأحشاء والرَّحم عند المرأة، والبطون على وزن فُعول، من جمع الكثرة التي تُستخدم في السياقات، التي يُراد فيها الدلالةُ على التعدُّد أو الشمول، ولذا فهو يوحي هنا أنَّ كلَّ إنسانٍ له بطنٌ مخصوصٌ نشأ فيه، فاللهُ يذكِّر الناسَ جميعًا بأصلهم، ممّا يعزِّزُ معنى التذكير بالخلق والإحاطة والقدرة الإلهية.

وإضافةُ لفظ الأمهات إلى الضمير (كم) الذي يعود على ضمير المخاطَبين ﴿أَنتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؛ إضافةُ تعريفٍ حقيقي يُفيدُ التعيين، أي: بطون أمهات كلِّ فردٍ منكم على التعيين، لا بطون الأمهات عمومًا، وهذا يُحدِثُ تأثيرًا نفسيًّا؛ لأنَّ الخطابَ شخصيٌّ مباشرٌ لكلِّ سامع، ويوحي بارتباطٍ وثيقٍ للمخاطب بأمِّه ومكان خلقه، ويُضفي طابعًا من الامتنانِ، بأنَّ اللهَ خلقَ كلَّ واحدٍ منكم في بطن أمه، ورزقه الحفظَ والنموَّ والرعايةَ بما يدفعُ إلى شكرِ الله، وتذكُّرِ عظيمِ قدرته ونعمه سبحانه.

فائدة الوصف بشبه الجملة:

البيان القرآني في قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ صفةٌ كاشفةٌ تُبيِّنُ الواقعَ، وتحقِّق المعنى[1]، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ، وهو ﴿أَجِنَّةٌ﴾؛ إذ الجَنينُ لا يُقال إلّا على ما في بطْنِ أُمِّه، فبعد الخروج لا يسمّى إلّا ولدًا أو سقطًا، وفائدةُ هذا الكشْفِ أنَّ فيه تَذكيرًا باختلافِ أطْوارِ الأجِنَّةِ مِن وقتِ العُلوقِ إلى الوِلادةِ، وإشارةً إلى كمال العلم والقدرة؛ فعِلْمُه محيطٌ بتلك الأطْوار المختلفة من وقت العلوق إلى حين الولادة[2]، وبطنُ الأم في غاية الظلمة، ومن عَلِمَ بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهرَ من حالِ العباد[3]، وللتذكير برعايته لهم وهم فيها، وللحضِّ على مداومةِ شكره وطاعته وعدم العُجب بالأعمال[4].

تذكيرٌ باختلافِ أطْوارِ الأجِنَّةِ وإشارةٌ إلى كمالِ علمِ الله وقدرته فيها

بلاغة التعبير بالاعتراض بجملة الفاصلة:

جُملةُ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ اعتراضٌ بيْنَ جُملةِ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾، وجُملةِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾، وغرضُه: تحذيرٌ للمؤمنين من العُجب بأعمالهم الحسنة عُجبًا يُحدثه المرءُ في نفسه، أو يُدخله أحدٌ على غيره بالثناءِ عليه بعمله[5].

في الاعتراض تحذيرٌ للمؤمنين من العُجب بأعمالهم الحسنة

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ لتَفريعِ الاعتراض على علمِ الله بالمؤمنين؛ تحذيرًا للمؤمنين من العجبِ بأعمالهم الحسنة[6]، أو "لترتيبِ النَّهي عن تزكيةِ النفسِ على ما سبقَ منْ أنَّ عدمَ المؤاخذةِ باللمم ليسَ لعدمِ كونِه من قبيلِ الذنوبِ، بلْ لمحضِ مغفرتِه تعالى مع علمه بصدوره عنكُم، أي: إذا كانَ الأمرُ كذلكَ؛ فلا

الفاءُ بين تفريعِ الاعتراض على علمِ الله بالمؤمنين وترتيبِ النهي عن تزكيةِ أنفسهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 69.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 272.
(4) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 78.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125.

تُثنوا عليها بالطهارةِ عن المعاصي بالكليةِ، أو بما يستلزمُها من زكاءِ العملِ ونماءِ الخير، بلِ اشكروا اللّٰه تعالى على فضلِه ومغفرتِه"[1].

غرضُ التعبير بالنَّهي في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾:

الغرضُ البلاغي للنهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ هو التَّحذيرُ من العُجب والتفاخرِ بالأعمال والأحساب والأنساب؛ لأنَّ اللّٰه سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ من أحوال الناس، فالصوابُ هو التفويضُ إليه؛ لأنَّ للناس بواطنَ مختلفة في الموافقة لظواهرهم، وبين أنواعها بون، وهذا من التأديب على التحرُّز والحيطة في الحكم[2]، كما أنَّ النهيَ هنا يفيدُ العمومَ؛ لأنَّ الفعلَ في سياقِ النهي، فيعمُّ، والمراد النَّهيُ عن تزكيةِ السمعة، أو المدحِ للدنيا، أو التزكيةِ على سبيلِ القطع، وأمّا التزكيةُ لإثباتِ الحقوق، ونحوه - كالإخبارِ عن أحوال الناس بما يعلمُ منهم، وجربوا فيه من ثقةٍ وعدالة - فهي جائزة[3].

التحذيرُ من التفاخرِ والتحرُّز والحيطة في الحكم

دلالة التعبير بالمضارع المضعَّف المجموع ﴿تُزَكُّوٓاْ﴾:

التعبيرُ بصيغة المضارع المسبوق بالنهي ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾ إفادةُ استمرارِ النهي عن تزكية النفس وتجدُّدِه في أيِّ وقت من الأوقات، وفي أيِّ حالٍ من الأحوال، وأمّا التَّضعيف في الفعل؛ فيُراد به نِسبةُ المَفعولِ إلى أصْلِ الفِعلِ، أي: لا تَنسبوا لأنفسِكُم الزَّكاةَ، فقوله: ﴿أَنفُسَكُمۖ﴾ صادقٌ بتزكية المرء نفسه في سرِّه أو علانيته، فرجع الجمْعُ في قولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾ إلى مُقابَلةِ الجمْعِ بالجمْعِ، التي تَقتضي التَّوزيعَ على الآحادِ، مِثْلُ: ركِبَ القومُ دَوابَّهم[4].

استمرارُ النهي عن نسبةِ التزكيةِ إلى النفس في السرِّ والعلن

إضافة لفظ الأنفس واستعمالها، بين الحقيقة والمجاز:

إضافةُ الأنفس إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ

نهيٌ عن تزكيةِ المرء نفسه وعن غيره

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125 - 126.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 63.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125.

﴿أَنفُسَكُمۡۖ﴾، إمّا على سبيلِ الحقيقة بتَزكيةِ المرْءِ نفْسَه في سِرِّه أو عَلانيته[1]، والنهيُ عن ذلك؛ لأنَّه من علاماتِ كونه محجوبًا عن اللّه، أو على سبيل المجاز؛ بأنْ يثني على غيره من إخوانه بالصلاح، والطاعة، والنهي لئلّا يغيِّره ذلك، ولأنَّ للناسِ بواطنَ مختلفةَ الموافقةِ لظواهرهم، وبين أنواعها بون، وكثيرًا ما يثني بشيء، فيظهر خلافه، وربَّما حصلَ له الأذى بسببه[2]، وبلاغةُ التعبير بالنفس عن الآخرين في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ تنزيلُ الآخرين منزلةَ الذات؛ تذكيرًا للمخاطَبين بأنَّ الكلَّ من نفسٍ واحدة، وأنَّهم كالنَّفس الواحدة، بما يحملهم كذلك على التَّسامح والتَّوادِّ والتَّعاطف، وطيبِ النَّفس فيما بينهم.

موقع جملة ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ ممّا قبله ودلالته:

وقَعَتْ جُملةُ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ موقع شبه كمال الاتصال؛ إذ أثار النَّهي سؤالًا عن علَّة النهي، فكان الجواب: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾، فهو استِئنافٌ مُقرِّرٌ للنَّهي، ومُشعِرٌ بأنَّ فيهم مَن يَتَّقيها بأسْرِها[3]، والمعْنى: فوِّضوا ذلك إلى اللّهِ؛ إذ هو أعلَمُ بمَنِ اتَّقى، أي: بحالِ مَنِ اتَّقى، مِن كَمالِ تَقْوَى، أو نَقْصِها، أو تَزييفِها[4].

بَيانٌ لسَببِ النَّهي عن تزكيةِ النفس والآخرين

دلالة صوغ ﴿أَعۡلَمُ﴾ على هيئة (أفعل) التفضيل:

صاغَ البيانُ الحكيم فعل ﴿أَعۡلَمُ﴾ على هيئة (أفعل) التفضيل، في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ اللّهَ أعلمُ بأحوال المخاطَبين ممَّن جاهدَ نفسه، حتى حصل فيه تقوى من أنفسهم ومن جميع الخلق[5]، فإنَّه لا يعزبُ عن علمه شيءٌ من أحوالِ جميع المتَّقين، فيجازيهم بأحسن ما كانوا يتَّقون.

لا يعزبُ عن علمِ الله شيءٌ من أحوالِ جميع المتَّقين

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 69، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125 - 126.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 126.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 69.

معنى (الباء) ودلالتها:

الباءُ في قوله: ﴿بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ للمُلابَسَةِ، أي: علمه سبحانه ملابسٌ لحالِ من اتَّقى من كمالِ تقوى أو نقصها أو تزييفها.

الغرض من التعبير بالموصول (مَن):

في الموصوليَّة بيانٌ لعلمِ الله بالمتَّقين جميعًا

عبَّر البيانُ الحكيم بالموصول (مَنْ) موضعَ ضميرهم في قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، ولم يقلْ: (هو أعلمُ بهم)؛ للدَّلالة على العموم وللتوسُّل به إلى وصْفِهم بما في حيِّزِ صلتِه من اتِّقائهم المعاصي جميعًا، فعِلمُه لا يَعزبُ عن أيِّ واحدٍ ممَّن اتَّقى.

دلالة التعبير بالماضي، وصوغه على زنة الافتعال:

مدحٌ لمن جاهدَ نفسه في التَّقوى، واستمرَّ حتى صارتِ التقوى وصفًا له

عبَّر البيانُ القرآني بالفعل الماضي ﴿ٱتَّقَىٰ﴾، وصاغه على زنةِ الافتعال؛ للدَّلالة على مجاهدةِ النَّفس في التقوى، والاستمرارِ على هذه المجاهدة، "أي: جاهدَ نفسه حتى حصلَ فيه تقوى، فهو يوصلهُ فوق ما يؤملُ من الثوابِ في الدارين، فكيف بمن صارتْ له التقوى وصفًا ثابتًا؟"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإثم والفاحشة واللَّمم:

الذين يجتنبون كلَّ كبيرةٍ تؤخِّرهم عن الخير، وتنفرُ منها نفوسُهم، يسترُ الله لهم الصغائر

الإثمُ هو الذَّنبُ الذي يستحقُّ العقوبة عليه، ولا يكون إلّا تعمُّدًا[2]، وهو معصيةٌ وخطيئةٌ تستحقُّ على صاحبها الذَّمَّ واللوم والعقاب، ويحملُ على القلقِ، فتنفرُ منه النفس، ولا يطمئنُّ له القلب، وفي الحديث: «الإثمُ ما حاك في صدرك»، ولا يَصحُّ أنْ يوصفَ بهِ إلّا الحرام، سَواء أُريد بهِ العقاب، أو ما يسْتَحق بهِ من الذُّنوب[3]، الفاحشة: هي الفعلةُ الشنيعةُ التي عَظُمَ قبحها، وفَشا استقباحُها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 69.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثم)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 233.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (إثم)، والكفوي، الكليات، ص: 40.

لدى النّاس، من الأفعال والأقوال والأحوال، من زِنى أو نشوزٍ وسوءِ خُلقٍ[1]، والَّتي شَدَّدَ الدّينُ في النَّهْيِ عَنها، وتَوَعَّدَ عَلَيها بالعَذابِ، أو وضَعَ لَها عُقوباتٍ في الدُّنْيا لِلَّذي يَظْهَرُ عَلَيهِ مِن فاعِليها[2]، وأمّا اللممُ؛ فهي صغائرُ الذنوب، أو مقاربةُ المعصية دون مواقعتها[3]، فاللممُ: الفِعلُ الحَرامُ الَّذي هوَ دونَ الكَبائِرِ والفَواحِشِ في تَشديدِ التَّحْريمِ[4]، وقد استعملَ البيانُ القرآني هنا الألفاظ الثَّلاثة، فمدحَ الذين يجتنبون كبائرَ الإثمِ والفواحش، وكلَّ فعلٍ قبيحٍ شنيع تنفرُ منه النفس، ويؤخِّرهم عن الخير، وبيَّن بالمقابل أنَّ اللّهَ لا يؤاخذهم على اللمم، وهي الصغائر، ومن رحمته سبحانه أنَّه يغفرها، ويسترها.

المغفرة والعفو والصفح:

المغفرةُ تغطيةُ الذنبِ، والغفرانُ يقتضي إسقاطَ العقاب، والعفو: إسقاطُ العذاب الجسماني، والمغفرةُ: إسقاطُ العذاب الروحاني، والتجاوزُ عنهما، وقيل: العفو أبلغُ من المغفرة، فإنَّ الغفران ينبئُ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، وهو أبلغُ من الستر؛ لأنَّ السترَ للشيء قد يحصلُ مع إبقاءِ أصله، بخلافِ المحو فإنَّه إزالته جملةً ورأسًا، وأمّا الصفحُ؛ فهو التجاوزُ عن ذنبِ المذنبِ ومسامحته، وقيل: هو تركُ مؤاخذةِ المذنب بالذنب، وأن تبدي له صفحةً جميلة، ولهذا لا يُستَعملُ في اللّه تعالى[5]، وقد استعملَ البيان القرآني هنا المغفرة؛ لكونها أنسبَ مع السياق الذي يركِّز على اجتنابِ الكبائر وإسقاطِ العقاب عن الصغائر، وأنسبَ مع السترِ الواسع، وهذا من رحمتهِ سبحانه.

من عظيمِ رحمته سبحانه سترُه الواسعُ الَّذي يشملُ إسقاطَ العقاب عن الصغائر

الإنشاء والخلق والإيجاد:

الإنشاءُ: هوَ الإحداثُ حالًا بعد حالٍ، والإنشاءُ: إيجادُ الشيءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (فحش).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لمّ)، والراغب، المفردات: (لم).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 25/ 110، 27/ 121.
(5) ابن فارس، والراغب، المفردات: (عفو)، (غفر)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 363 - 364.

التدرُّجُ في الخلق مـع الـرعـايـة والـتـهـيـئـةِ من العنايةِ الإلهية في التكوين

وتربيتُهُ، والإنشاءُ: ابتداءُ الخلقِ، وكلٌّ من ابتدأ خلْقَ شيءٍ واخترعه؛ فقد أنشأه[1]، أمّا الخَلقُ؛ فهو تقديرُ الأشياء، وإيجادها على مثالٍ لم يُسبقْ إليه[2]، أي: إبداعُ الشيءِ من غير أصلٍ ولا احتذاء، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، وليس الخلقُ الذي هو الإبداعُ إلّا للّٰهِ تعالى[3]، واستُعمِلَ لفظُ (أنشأكم) هنا دون (خَلَقكم)؛ لكون السياق يتحدَّثُ عن مراحلِ وجود الإنسان، والتَّدرُّج في الخلق من التراب إلى الجنين، فدلَّ لفظُ الإنشاء على الخلقِ مع زيادة النُّموِّ والنشوءِ شيئًا فشيئًا، فالإنشاءُ يوحي بالرعايةِ والتهيئة، وهذا من العناية الإلهيَّة في التكوين.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشأ)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 134، والزبيدي، تاج العروس: (نشأ).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).

(3) الراغب، المفردات: (خلق).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والخمسون،
سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 58 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-62-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 58 : المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-62-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4238337 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"